

عن عز الدين قلق... وعن الملقق الفلسطيني

بقلم: فايز ملص

لقيت عز عند أكثر من محطة على طريق منفاه الأخير...
دمشق عام 1960 جهاد قلق تأتيني كل أسبوع بحلقة جديدة من "رسائل إلى قطني".
ركنها الصغير في صفحتنا الجامعية بجريدة " الأيام"...
عام بأكمله وأنا أنشر هذه الرسائل الطافحة حنانا وحرزنا دون ان يخالجنى الشك لحظة
واحدة في كونها مراسلة حقيقية مع أخ معتقل في المزة¹ منذ قرابة السنتين.
خريف 1961: عند بوابة الجامعة السورية الكبيرة يستوقفني الصديق سامي
ليقدم إليّ زميله في كلية العلوم الخارج لتوه من السجن. وأشد على يد عز الدين قلق
وعيناى مغرورقتان: هذا الإنسان المتواضع والفخور معا قتل ثلاث سنوات من عمره
لكي لا يوقع اسمه تحت جملة صغيرة: " يحيا البطل... ويسقط الحزب" كنت يومها
مع " البطل"... وكان هو مع " الحزب".
خريف 1970: دار المغرب في المدينة الجامعية بباريس: عز مرة أخرى...
كان الزمن زمن أيلول الأسود... وكنا نعمل ليل نهار في لجنة "المبادرة" للدفاع عن
الثورة وعن شعب فلسطين المهديين بالإبادة... وكان الاتحاد الوطني لطلبة المغرب
ومدير الدار، فرانسوا دي لاسودا. قد وضعا تحت تصرف "فلسطين" صالات الدار
وغرفها التي تحولت إلى ورشة لإنتاج المناشير والكراريس وتجميع الأدوية وإرسال
الوفود على المحافظات والأحياء العمالية... وعقد الاجتماعات التعبوية...
وفي آخر كل نهار...كنت أرى فتى نحىلا وعبوسا عنيد النظرة يحمل
"المكنسة" وينظف الردهة من بقايا الأوراق وأعقاب السجائر... إنه الدكتور عز الدين
قلق رئيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين في فرنسا وعضو حركة فتح...
ومرت الأيام وتتابع الأحداث بسرعة وعنف واصبح عز الدين ممثلا لمنظمة
التحرير ووجها "دبلوماسيا" وإعلاميا مرموقا في العاصمة الفرنسية... ولكنه بقي يكس

¹ سجن في ضاحية قرب دمشق بهذا الاسم.

مكتبه بنفسه ويذهب صباح كل أحد إلى سوق شعبية في ضاحية " كلينيانكور" للبحث عن بطاقات بريد فلسطينية.

هذا هو عز...

- خلال السنوات الأخيرة، لازم عز هاجس الاغتيال فالصحف اليمينية الفرنسية تنشر صورته وتبرزه كرأس "للإرهاب" الفلسطيني في فرنسا. وبعض الغلاة في الثورة اللفظية يضعون اسمه في "قوائم الموت" التي يعدونها "لتحرير فلسطين"! ... هذا في الوقت الذي تحاول أجهزة المخابرات الإسرائيلية اغتياله مرتين ويطارده عملاؤها حيثما حل أو رحل.

وكان عز يتعايش مع هذا الخطر اليومي المائل ويكاد يتقبله... كان يرى مصرعه الوشيك عند منعطف كل شارع فيتجنبه مدركا أنه سيلتقيه عند المنعطف التالي...

هل كان يستخف بالحياة، إذن؟

أبدا، فذلك الرجل كان يحب الحياة حبا لا حد له ويكره الموت بكل أشكاله: الظلم والفقر والنفي وفقدان الحرية والكرامة والوطن... كان يعي أهمية الحياة وعظمتها... ولكنه، كمناضل صلب الإرادة كان "يقنن" حياته... وأحيانا "يؤجلها"... يتقشف ويقسو على نفسه. وكلما اعترض صديق أجاب بالعبارة إياها: "شعبنا في المخيم لا يسكن أفضل من هذه الغرفة!"

حريف 1979: مر أكثر من عام على اغتيال عز... ولكنه ما زال حيا بيننا، وما زال يتلقى انتقادات أصدقائه وعتابهم ليرد عليها بابتسامة صاخبة: "يجب البحث عن مخرج... فلنشكّل لجنة!".

اما عن الملقق الفلسطيني. فاليكم القصة

جمع الشهيد عز مواد هذا الكتاب طوال ثلاث سنوات من الجهد الدؤوب. وتضم مجموعته الراهنة ما ينوف على الخمسمائة ملصق صدر معظمها في مختلف بلدان "الشتات" الفلسطيني وبعضها داخل الوطن المحتل... وكان عز يعتزم إعداد كتاب عن الملقق وتنظيم متحف له. وقد عمل في هذا المشروع بجدية كبيرة فقرأ الكتب

المتخصصة وحاوور الفنانين واتصل بالناشرين ودون في دفترين كل الملاحظات والمعلومات التي حصل عليها.

إلا أنّ عز استشهد قبل أن يضع "مسودة" كتابه، تاركا لمجموعة من أصدقائه وأصدقاء الثورة الفلسطينية مهمة إتمام ما بدأ...

وبالفعل، التأمّت في الأسابيع التالية لاغتياله "لجنة" عفوية² تولت فرز ملصقات المجموعة وتصنيفها وتصوير ما لم يصور بعد منها وإعداد المخطط العام للكتاب...

وقد اعتمدنا في ترتيب مواد الكتاب تصنيفا بحسب المواضيع الأساسية مع مراعاته التسلسل الزمني للأحداث كلما أمكن ذلك، ورأينا أن نقدم للكتاب بهذه الملاحظات

التي التقطناه من دفاتر عز الدين حول الملصق الفلسطيني وتاريخه ورموزه ووظيفته...

• الملصق أداة أساسية من أدوات الإعلام الثوري. فعبه تدخل "القضية" بيوت الجماهير وتسكن عيونهم. ويفضل الطاقة الإيحائية لنصوصه ورسومه، يذوب جليد التحفظ والتردد عند المتحفظين والمترددون... وتتم عملية "تعبئة" بطيئة ولكن أكيدة "لاحتياطي" الأتصار والأصدقاء...

• متى بدأ الملصق الفلسطيني؟ بدأ مع بداية الجرح الفلسطيني: ساير جموع النازحين حتى مناهم، وشيع قوافل الشهداء... ثم، مع الانطلاقة، أخذ يرسم ملامح الفدائي المتسلل عبر حدود وطنه، والشهيد العائد إلى تراب ذلك الوطن... ثم التنظيم الفدائي الناشئ... ثم المعارك والبطولات... ثم الثورة على طريق النصر.

• كان الملصق الأول مجرد مجهود نعي للشهيد: ثم تطور فأصبح بلاغا عسكريا ينعى الشهيد ويعاهد على متابعة المعركة ويعرض صورته ونبذة عن حياته...

• يمكن اعتبار مجلة "الثورة الفلسطينية" التي ظهرت في دمشق أولاً، ثم انتقلت على عمان بعد حرب حزيران 1967، الإطار الذي نمت خلاله فكرة الملصق

² شارك في أعمال هذه اللجنة كل من: يسر قلق، نيكول قينا، كلود لازار، سمير سلامة، ليلي فرهود، فايز ملص، وقد استفادت اللجنة في عملها من دراستين جامعتين حول الملصق الفلسطيني أعدت إحداهما ليلي فرهود وأعد الثانية الشانلي اللومي.

الفني التشكيلي كأداة إعلامية وتعبوية مستقلة: فعلى غلاف "الثورة الفلسطينية" وداخل صفحاتها ظهرت "الملصقات" الأولى لنذير نبعة ومصطفى الحلاج... ثم اتسعت الحلقة لتضم إسماعيل شموط وشفيق رضوان وعبد القادر أرنؤوط وسواهم...

- بانتقال مركز ثقل الثورة إلى الأردن، ازدادت أهمية الملصق الفلسطيني، لتواجد الثورة داخل جماهيرها الفلسطينية، من جهة، ولانغلاق وسائل الغلام الأخرى في وجهها، من جهة ثانية " كانت الصحافة والإذاعة بيد النظام).
- من عوامل انتشار الملصق بسرعة في الأردن "التنافس" بين التنظيمات الفدائية الناشئة على اجتذاب الأنصار والمتطوعين... وكان هذا "التنافس" من الحدة بحيث كان اسم التنظيم يظهر أحيانا في الملصق بحروف أكبر من شعاره السياسي.
- ابتداء من "الحقبة الأردنية" أخذ نوعان متميزان من الملصقات يبرزان، وكل منهما يخاطب جمهورا محددًا: النوع الأول، تقليدي، قوامه صورة الشهيد وعدد من الرموز الوطنية والروحية، وهو معد لمخاطبة جماهير المخيمات والأوساط الشعبية الفلسطينية-الأردنية... والثاني يركز على الشعارات السياسية للمنظمات، ويخاطب، على وجه الخصوص، الطلبة والمتقنين...
- بقي الملصق بعد "الخروج" من الأردن محتفظًا بسمته الأساسية التي لازمته منذ ظهوره: إنه فعل معارضة وتحريض، وهو على الرغم من حديثه وخصوصياته الأخرى، يحمل إلى الجمهور شحنة نضالية تتعدى حدود " القضية" لتشمل كل أشكال الاضطهاد الإنساني في كل مكان.

- يشير في أوراقه إلى "حرب الملصقات" التي شهدتها بعض العواصم العربية في أوائل السبعينات بين منظمات المقاومة الفلسطينية و"منظفي الجدران"، حيث كان الملصق يعلق بعد منتصف الليل على جدران المدينة... ليختفي منها قبل الساعة من صباح اليوم التالي.
- لعب الملصق دورا هاما في التوعية الاجتماعية للجماهير، فواكب نشوء قطاعات الثورة الاجتماعية وتطورها تحت تأثير الكفاح المسلح... كما ساهم في النهضة النسائية الفلسطينية التي رافقت نمو الثورة: " في المرحلة الأولى،

- يرينا المصق المرأة كسند للرجل ترعى عائلته، وسريعا تتناقض الأيدي العاملة بسبب كثرة الشهداء فتأخذ المرأة بالعمل (بنات الشهداء في معامل صامد... فتيات تل الزعتر يجترحن البطولات لجلب الماء للمخيم المحاصر...) وتمرض وتقاتل وتكتسب المزيد من الحريات فتطالب بالمزيد من الحقوق...".
- في لبنان، حقق المصق الفلسطيني قفزة نوعية كبرى، من حيث الشكل والمضمون والكم، فعمل في إخراج عشرات الفنانين الفلسطينيين والعرب والأجانب، وأصبح يطبع بالألوان ويعتمد أحداث التقنيات التشكيلية في بنائه، وينتج بأعداد كبيرة (وسطيا 2000 نسخة من كل ملصق).
 - هنا يوجه عز بعض الانتقادات إلى هذه المرحلة "اللبنانية"، فيعيب عليها إفراطها في استخدام التقنيات وأساليب التعبير الغربية وندرة لجوئها إلى الخط العربي والرسوم الشعبية، إلا أنه سرعان ما يستدرك فيلتمس لها في هاجس التصدي للدعاية المضادة واستعارة لغتها في مخاطبة الجمهور ذاته (الجمهور أجنبي).
 - لم تتبلور "مدرسة" فنية فلسطينية عبر هذه التجربة الإعلامية الكبيرة، وربما كان سبب ذلك التشتت الجغرافي النسبي للفنانين، وتنوع الساحات المخاطبة بالملصق، وتباين التأثيرات الفلسفية والفنية التي تلقاها منتجوه.
 - ثمة نوع من "الملصقات بدون ورق"، أو الملصقات "الفقيرة"، ازدهر في الأردن ولبنان على وجه الخصوص هو الكتابة على الجدران للدعاية للمنظمات وطرح شعارات الساعة، وهناك أيضا الملصقات الصغيرة (Affichette) المقتصرة على شعار سياسي محدد: "لا للوصاية" أو " كل السلطة للبنادق المقاتلة"...الخ.
 - تطور المضمون الرمزي للمصق تطورا كبيرا خلال السنوات العشر الماضية: من الشعلة والبندقية والسنبلة إلى الجديلة وخارطة فلسطين وألوان العلم والكوفية...
 - على الرغم من ضراوة الحرب وعدم تكافؤها بين الثورة الفلسطينية والكيان الصهيوني، فإنّ أية شعارات عنصرية (لا سامية) لم تظهر خلال النشاط الإعلامي الفلسطيني، وإذا استعملت "تجمة داوود" في بعض الملصقات، فمرد ذلك إلى أنها شعار "

- إسرائيل "وعملها.
- ثمة أخيراً، تطور تقني في الملصقات يلحظه الشهيد عز الدين: من لوحة اللون الواحد إلى الألوان المتعددة، ومن النص المرفق بصورة شهيد إلى الرسم الزيتي (الحلاج وجمعية أصدقاء القدس) والليتوغرافيا (رضوان) والرسوم المجردة والرمزية، إلى استخدام الصورة في بنية الملصق (فوتومنتاج - الشهيد هاني جوهرية)، أو توظيف الشعر والخط العربي في تشكيله.

... وبعد، فقد أدى الملصق الفلسطيني، ولا يزال، مهمة أساسية في الإعلام الثوري، فحمل القضية إلى الوجدان العربي والعالم، معركة أثر معركة، ونصراً إثر نصر ورسخها في ذاكرة الشعوب تعبيراً عن إرادة شعب يرفض الرضوخ لإرادة الطواغيت.